قضايا

هناك عدد من التقارير والرسائل التي كتبها فوزي القاوقجي بخط يده، ولم تُنشر حتى في مذكراته، ورسائل كثيرة تبادلها مع قادة. في ما يلي ورقتان من تلك الأوراق، نستعرض في الجزء الأول الورقة الأولى

ذكريات النضال في العراق وفلسطين والثورة السورية الكبرى

من أوراق فوزي القاوقجي [2/1]

صقر أبو فخر

قوات فرنسية في السويداء أثناء الثورة السورية الكبرى 1925/9/25 (Getty)

اسمه فوز الدين، وفي جسده عشرات الجروح التي وشمت جلده في المعارك التي خاضها في فلسطين وسورية والعراق. كان مغامرًا وغيورًا على العرب. ومع أن الآراء اختلفت في تقويم سيرته، ولا سيما في أثناء قيادته جيش الإنقاذ في فلسطين، إلا أن ما لا يختلف عليه اثنان هو أنه كان مقاتلاً جسورًا. وكان لديه جواد يحبه جدا اسمه «سوف». وقد مات ذلك الجواد بعدما أجهده على جبهة بير السبع - غزة في مواجهة القوات البريطانية، فانفجرت شرايين الجواد حين أرغمه على القفز فوق سيل ماء عريض، فنجح الجواد في اجتياز السيل، لكنه سقط صريع عناد فارسه. وعلى غرار الجواد «سوف» جرت حياة فوزي القاوقجي؛ فقد ذاق أهوالا شتى، وخاض معارك خطرة، ومنح نياشين كثيرة، لكنه كبا في معاركه الأخيرة في فلسطين.

ولد فوزي القاوقجي في حي العطارين بمدينة طرابلس الشام في عام 1890، ودرس في المدرسة السلطانية في طرابلس، ثم التحق بالكلية الحربية في الأستانة وتخرج ضابطا في عام 1912، وعين قائدًا لأحد أفواج الفرسان في الجيش العثماني. ومع اندلاع «الثورة العربية الكبرى» في عام 1916 رفض الانضمام إليها، وقاتل إلى جانب الأتراك في القدس في مواجهة الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال ألنبي الذي تمكن من اجتياح فلسطين في 1917/11/21، فانسحب القاوقجي مع الجيش العثماني إلى دمشق. وحين سقطت دمشق في 1918/10/1 في أيدي مقاتلي «الجيش العربي» غادرها إلى حمص ثم إلى طرابلس التي وصل إليها في 1918/10/16 وأقام فيها. ومع وقوع حلب بأيدي الجيش الإنكليزي في 1918/10/26، وصل إليها الأمير فيصل بن الشريف حسين، وفي طريق العودة مرّ بطرابلس وحل ضيفًا على مفتي المدينة عبد الحميد كرامي، وأرسل بطلب فوزي القاوقجي، وتمكن من إقناعه بالالتحاق بالجيش العربي الذي يقوده ياسين الهاشمي، فقبل، وانتقل إلى دمشق.

قاتل في أثناء معركة ميسلون في منطقة الصبورة، وأسر أحد الضباط الفرنسيين الذي أسقط المقاتلون طائرته ومعه مساعده. ولما احتل الجيش الفرنسي دمشق في 1920/7/24، اضطر إلى إطلاق سراح الأسيرين، وأدت المفاوضات مع الحكومة السورية الجديدة إلى موافقة القاوقجي على الانضمام إلى الجيش السوري الذي كان يجري تشكيله، ومنح رتبة نقيب. وفي ما بعد أصبح آمرًا لسرية الخيالة في مدينة حماة. ومع انطلاق الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين بقيادة سلطان الأطرش أعلن إنضمامه إلى الثورة في 1925/10/5. وحين توقفت عمليات الثورة في سنة 1927، غادر القاوقجي إلى تركيا ومنها إلى السعودية حيث مكث أربع سنوات صرفها في تدريب الجيش السعودي الذي كان يجري تشكيله آنذاك. وفي السعودية تزوج فتاة من آل العتيبة وأنجب فتاة دعاها سورية. وفي سنة 1932 وصل إلى العراق بناء على طلب الفريق طه الهاشمي، وعين مدرسًا في الكلية الحربية في بغداد.

في 1936/8/1 اجتاز البادية إلى فلسطين قادمًا من العراق على رأس 150 مقاتلاً متطوعًا لنجدة الثورة الفلسطينية التي اندلعت ضد الانتداب البريطاني وضد الهجرة اليهودية. وفي 1936/8/28 أذاع بلاغًا باسم «القائد العام للثورة العربية في سورية الجنوبية»، وفيه يعلن انطلاقة العمل العسكري في فلسطين، وخاض معارك عدة منها معركة جبع في 1936/9/24 بين نابلس وجنين، ومعركة بلعا في 1936/9/3. وبعد توقف الثورة عاد إلى العراق، لكنه، جراء انقلاب بكر صدقي في سنة 1936، نُفي إلى كركوك ووضع في الإقامة الجبرية. وبقي على هذه الحال حتى سنة 1941 حين شارك في حركة رشيد عالي الكيلاني. ولما هزمت تلك الحركة غادر العراق إلى سورية. وبينما كانت قافلته تقترب من مدينة تدمر في 1941/6/9 هاجمتها الطائرات الإنكليزية، فأصيب إصابات خطرة نقل في إثرها إلى دير الزور، ثم إلى حلب فإلى ألمانيا حيث خضع لعلاج طويل في هيدزا كلينيك. وحتى في برلين لم تستقر أحواله، فقد اعتقله الجيش السوفياتي في 1946/5/29 بعد سقوط برلين، ثم أطلقه بعد نحو شهرين، لكنه وضع في الإقامة الجبرية. وقد تمكن في سنة 1947 من مغادرة برلين إلى باريس التي لم يلبث أن غادرها إلى القاهرة فبيروت ثم إلى طرابلس فدمشق. وفي دمشق تقدم إلى مجلس جامعة الدول العربية المنعقد آنذاك في مدينة عاليه باقتراح ينص على تأليف جيش من المتطوعين العرب للقتال في فلسطين. وقد قررت الجامعة في 1947/2/27 تأليف جيش الإنقاذ وأسندت قيادته إليه، وتمكن من تطويع عدد من المقاتلين من لبنان وسورية والعراق، ودخل إلى فلسطين في 1948/3/6 بعد خوضه معارك مشمار هعيمك وزرعين وعارة وقاقون وقلقيلية والمالكية. وفي نهاية المطاف اضطر إلى الانسحاب من فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل وتوقيع اتفاقات الهدنة في سنة 1949 مع لبنان والأردن ومصر وسورية، فعاد إلى دمشق، ثم إلى طرابلس، واستقر في بيروت مع زوجته الألمانية حتى رحل في سنة 1977.

في مطموراتي الخاصة عدد من التقارير والرسائل التي كتبها فوزي القاوقجي بخط يده، ولم تُنشر ألبتة حتى في مذكراته التي أعدتها خيرية قاسمية، استنادًا إلى أوراقه الشخصية، ومنها تقرير وافٍ عن الثورة السورية الكبرى كتبه في سنة 1927، وأرسله إلى قادة الثورة المنفيين في بادية الأزرق في الأردن. وبين يدي رسائل كثيرة تبادلها القاوقجي في فترات متعاقبة مع الملك عبد العزيز آل سعود ومع عبد الرحمن الشهبندر ونسيب البكري وتوفيق حيدر وسعيد العاص وسعيد الترمانيني وعادل العظمة ومظهر الشاوي واللجنة السورية الوطنية في دمشق. وعلاوة على الرسائل الموجّهة إليه من أعيان القلمون وبعض العشائر، ثمة تقرير مطوّل عن ذكرياته في الثورة السورية الكبرى والمعارك التي شارك فيها كتبه في 1927/2/10. وجميع هذه الأوراق تدور على الأحوال في سورية إبان ثورة 1925، وعلى أوضاع مناطق سورية بعينها، ومدى استعداد أهلها للثورة مثل القلمون وجبال أكروم وجبل الزاوية والغوطة، وتدور كذلك على عشائر الهرمل أمثال آل دندش وحمادة وجعفر. وفي ما يلي ورقتان من تلك الأوراق.

الورقة الأولى
[ذكريات النضال في العراق وفلسطين]

«خرجت من الحرب العامة [الحرب العالمية الأولى] وأنا أحمل أسوأ فكرة عن الجندي العربي، وصفاته الحربية، ومميزاته وكفاءته في القتال. وكنت [في] ذات الوقت أنظر بعين الإعجاب والتقدير إلى الجندي التركي لما أبداه في ميدان الحرب العامة من البسالة والاقدام والشجاعة خاصة في الدفاع».

«مكثت في سورية طوال أدوار تطوراتها التاريخية، ابتداء من تشكيل الحكومة الفيصلية حتى الثورة السورية الكبرى، وكان يثيرني ما أسمعه عن أعمال الجندي التركي في حربه القومية في الأناضول، ويؤلمني جداً أن لا يكون الجندي العربي في مستواه. وإذا بحوادث الريف [في المغرب الأقصى] تجعلني أنذهل استغرابًا مما أبداه الثائر العربي هناك من بطولة، فتكشف عن مزايا فيه تفوق ما شاهدته من مزايا في الجندي التركي إبان الحرب العامة وفي الحرب الكمالية، فأشعل ذلك من مشاعري، وقلت في نفسي إنه لا يزال في مراكش بقية من دماء الجدود لا يملكها الجنود عندنا في سورية. وقامت الثورات عندنا في سورية، وأظهر فيها المجاهد العربي شيئًا بين الرجولة والبطولة أوقعتني في ريبة وتبلبل في اعتقادي ذاك».

«وصلت البلاد السورية إلى حالة لا يمكن معها السكوت: إهانة عامة، ظلم فظيع، فقر مهلك، حالة خطرة ناتجة عن سياسة الإفرنسيين المتبعة فيها، حوادث الأتراك الجارية بالقرب منا، وبطولة المجاهد الريفي أمام الجندي الفرنسي. وكل ذلك حفزني إلى تجربة المجاهد السوري في ثورة وطنية على الجندي الإفرنسي التي كنا في حاجة ماسة لها».

> ولد فوزي القاوقجي في حي العطارين بمدينة طرابلس الشام في عام 1890، ودرس في المدرسة السلطانية في طرابلس
>
> قاتل في أثناء معركة ميسلون في منطقة الصبورة، وأسر أحد الضباط الفرنسيين الذي أسقط المقاتلون طائرته ومعه مساعده

«بدأت بالتشكيلات اللازمة بحزم وعزم، ولكن بأمل جد ضعيف لعدم ثقتي بالمجاهد العربي السوري، واعتمادي على قابليته لمثل هذه المخاطرة. ولكن لا بد من المجازفة دفعًا للإهانة، فأقدمت كالمجنون، لا حساب ولا منطق، فقمت بثورة حماة في 5 تشرين الأول [أكتوبر] 1925 التي قلبت ثورة الدروز الموضعية إلى وطنية عامة، والتي فتحت الغوطة وأبواب دمشق أمام الثوار، وجعلت الإفرنسيين يلتزمون الدفاع بدلاً من الهجوم إلى أن تأتيهم النجدات، فكان موقف الإفرنسيين إذاك أشد حراجة من موقفنا. وتوالت المعارك، وكان يتعاظم تقديري وإعجابي بالمجاهد العربي السوري بنسبة عظمة كل معركة يخوضها ويخرج منها منتصرًا، دفاعًا كان أم هجومًا».

«واعتمادًا على هذا الكنز الذي لمسته بيدي، قمت أفكر في كيفية استعمال هذه القوى المخزونة لإنقاذ الجزء الأشد حاجة من بلادي. وكنت دائمًا أقارن بين فلسطين وسورية، ومصابُ كل منهما عظيم. فسورية بدويلاتها العديدة التي أقامها الفرنسيون، وبما زرعوه في نفوس الشعب من الفساد والتفرقة والنزعات الطائفية، وبالمعاملات التي قضت على اقتصاديات البلاد، وبالمشاريع التي لم تبق للبلاد سبب [سببًا] من أسباب الحياة، وغير ذلك، وفلسطين بالمطامع الصهيونية، وبتفاني الانكليز في تأمين رغبات اليهود بواسطة حرابهم، وبما آلت إليه من الفساد والتشتت وضياع الأراضي والأملاك وتحويلها إلى أيدٍ صهيونية، وباستعجال اليهود والإنكليز في تهويد البلاد دون أن يرعوا للأمة العربية حرمة، أو يحسبوا لها حسابًا، ودون أن يفكروا بالأمة العربية حليفتهم بالأمس، وما قطعوه لها من وعود وعهود، وبتناسيهم الخدمات الجُلّى التي قدمتها الأمة العربية لهم أيام محنتهم، وعدا عن كل هذا إقدام الانكليز يوم وادي الحوارث على استعمال حرابهم في الأطفال والنساء والشيوخ، وإجلاء هؤلاء جميعًا، وإحلال اليهود محلهم. عند هذا أيقنت أنه لا وزن للعرب ولا اعتبار في نظر الانكليز حلفائنا، وتأكدت أن الهلاك آتٍ لا ريب فيه، وشعرت بأنني، بصفتي عربياً مهانا، وأنه لا يحق لي المباهاة أمام أي عنصر من العناصر الأجنبية، فأصبح لزامًا عليّ أن أهبّ وأضحي بنفسي كي أكون قدوة يسترشد بها شباب الأمة، لأن هذه الأعمال التي يقوم بها المستعمرون إهانة تلحق بكل عربي، وأنه لا بد من عمل نقوم به يجعل لأنفسنا فيه وزنًا. فشرعت أستعد لموضوع سورية دون إغفال ما في فلسطين من استعدادات. وكان عليّ أن أهيئ خطتين في آن واحد، على أن ننفذ واحدة تلو الأخرى. وذهبت إلى القدس عام 1934، وعقد ثمة اجتماع هام مع رجالات البلاد، نظمت فيه الخطتين تحريريًا، وتم الاتفاق عليهما، وتقرر في ذلك الاجتماع ترجيح سورية على فلسطين نظرًا لظروف سورية الخاصة [كانت الخطة تنص على إعلان الثورة في فلسطين لطرد الإنكليز والصهيونيين، على أن تكون دمشق القاعدة الخلفية للثورة وسندها المباشر]. وبدأت العمل وأنا في بغداد، وهيأت كل ما يحتاج إليه مشروع سورية من استعدادات، ثم عدت كرة أخرى إلى القدس في نيسان [أبريل] 1935 متنكرًا هذه المرة لتثبيت ما يحتاج إليه مشروع فلسطين الذي يجب أن يكون عقب تنفيذ مشروع سورية. وقد حددنا 1 تشرين الأول [أكتوبر] 1935 موعدًا للشروع في مشروع فلسطين، وقفلت إلى العراق لتنفيذ المشروع الأول تحت ستار من الكتمان والتضليل الذي نجحت في نشره بين الناس».

«وكان إضراب سورية أنسب ظرف استثمره، ولم يصل الإضراب إلى يوم الثلاثين إلا وكنت أتممت كل ما يجب، وكنت على أهبة العمل فعلاً. وانتهى الإضراب بطلب الافرنسيين للمفاوضة، فكنا نرقب النتيجة، والنتيجة السلبية للمفاوضات كانت جُل ما أتمناه، وأقصى ما أنتظره من الفرص، وإذا بحوادث فلسطين تفاجئنا بالإضراب ثم بالاضطرابات. وتطوّر الاضطرابات عاجلنا بتحويل تشكيلات مشروع سورية إلى فلسطين. وبظرف عشرين يومًا تم تنظيم قوات مجاهدي حمص، حماة، دمشق، دروز لبنان، [دروز] شرقي الأردن، والعراق، ثم تسليحهم وتثبيت طرق مسيرهم وإعاشتهم وهدفهم الذي يجتمعون عنده، متسللين إليه من أطراف الجزيرة كلها في آن واحد. وكان هذا الأمر وحده يتطلب عبقرية وحزمًا وجهدًا مستمرًا. وكانت هذه الصفحة التي تُعد من أروع صفحات تاريخ الأمة العربية منذ صدر الأمويين، على غاية من الاتقان والإبداع والتوفيق، بالرغم من المشاكل والصعاب التي لم تكن لتستوعبها أعظم رؤوس رجالنا الكبار الذين كانوا يعتبرونها من المستحيلات». [يمكن العثور على تفصيلات مسهبة عن تلك الاستعدادات في: مذكرات فوزي القاوقجي، إعداد خيرية قاسمية، دمشق: دار النمير، 1996، ص 176-179].

«وإني لأذكر بإجلال وتقدير جهود خمسة إخوان لي في عمان ودمشق والقدس الذين كان لهم الفضل الأكبر في إنجاح مشروعي العظيم هذا، كما أن لهم نفس الفضل في مشاريع الثورة السورية الخطرة، وإني لأنظر إلى هؤلاء الرجال القليل عددهم كأمة بمجموعها. إن وجود أمثال هؤلاء الرجال في الأمة العربية [هم على الراجح، المفتي الحاج أمين الحسيني وعادل العظمة ومنير الريس وحمد صعب والحاج أديب خير]، والحيوية العظيمة الكامنة في نفوسها، والقدرة الهائلة التي تملأ كريوات الدم العربي، لأعظم ضمان لسلامة الأمة العربية من مفاجآت الدهر، ولأكبر قوة تدفع عنها أجسم الأخطار، وتحمي ليس لواء الاسكندرونة من الاغتصاب فقط، بل جميع حدود سورية من طمع الطامعين كافة، إذا وُجد من يعرف استثمار مواهب هذا الشعب واستخراج كنوز قدرته وحسن استعمالها. وأن هذا الشعب العربي النبيل، في نظري، لم يعد بحاجة إلى براهين لإثبات هذه المؤهلات بعدما سجل في تاريخه القديم وتاريخه الحديث من روائع الحوادث والوقائع التي لا يقدر أي شعب آخر أن يأتي بمثلها بنفس الشروط والظروف».

[الورقة بلا تاريخ والراجح أنها كُتبت في العراق بعد عام 1938]

(كاتب عربي)

دم واحد

يقول القاوقجي «خرجتُ من الثورة السورية وأنا أحمل أعظم فكرة عن هذه الأمة العربية العظيمة ذات التاريخ والمجد العظيم، بأن كنزها لا يزال كما هو مخزونًا في دماء الشعب، وأن فيه قدرة لا ينضب معينها، وأن الذي يستطيع استخراجها واستثمارها، قادر على تحطيم كل أدوات الاستعمار الفولاذية، وتخريب كل قواعدهم المتينة. وأتاني اليقين بأن الدم الذي يصمد في المغرب الأقصى أمام جيوش فرنسة الجبارة، هو نفس الدم الذي يصمد اليوم أمام نفس القوى الجبارة في جبل الدروز والغوطة والقلمون».